الامة تحبو

نريد بالامة هنا الامة العربية او الشعوب العربية وان كان لكل قطر بل لكل كورة من اقطار بلادها وكورها حالة خاصة بها وفلسفة روحية تختلف عن حالة غيرها وتستدعي بحثاً في حدتها ولكن ما يتعذر في التفصيل يحتمل ان يذكر في الاجمال . ننظر نظرة عامة في حال العرب تجلي لنا ان كانوا ناهضين نحو الرقي ام هم يسيرون سيراً متثاقلاً لا يعرفون الغاية ولا يهتدون الى وجه الحق سبيلا

اذا بدأنا بمراكش وهي في حدود البلاد العربية نجدها لم تبرح في ميدانها من امرها امة امية كما كانت في اواخر القرون الوسطى وهي في استقلالها وقربها من اوربا لم تتأثر بالمدنية الغربية وما برح اهلها يعيشون في حالة البحت يأكل كبيرهم صغيرهم ويعيث حاكمهم بمحكومهم ويرون السعادة كل السعادة بما هم فيه ولا تحدثهم انفسهم ان يغيروا ما بهم بان يخرجوا عن صرف تقاليدهم وعاداتهم وجاهليتهم .

ولعل مراكش اقل في تقاليد مدنيتهم كانهم يحملون القشرة اي جلدة الاعضاء في افريقية بالنسبة لاهل الاديان السماوية الراقية من اهل الفطرة الاصلية وليس عندهم من دواعي البقاء الا ما لا غنية عنه بكل ابل بها الجمل درجة محترمة وهيهات ان توحد كلمة المراكشيين على تباين افكارهم واعصارهم ما دامت القبائل تعادي الحكومة كل يوم في شأن وليس بين قبائل العرب في الناصية وبين اهل فاس وضاحيتها كما بين عالم آخر . فالناس يسوغ ان يقال عنهم بانهم لم يبلغوا مما يطلق عليه اسم مدنية بن باب الفقر وهم سكان الاصقاع وطاهمتهم لا يعرفون الا بعض الشعائر الدينية والتاريخية وتنقف معارفهم عند هذا الحد ومن المتعذر جداً ان ترى مراكشياً من العربيين في ملبسه ومشيته ومأكله يصدر عن المدنية اللاتينية

وهكذا اذا جئت تبحث في حال اهل المغرب الاوسط اي الجزائر ولولا مبادىء من الافرنسية يقتبسها بعض الجزائريين طوعاً او كرهاً لرأيتهم الا كادوا مراكشيين حذو القذة بالقذة . اما مدنية الجزائر فسارية على التطبيع بطابع المدنية الغربية في شدد السكان الاصليين واستنكافهم من الاخذ بها والتخلي من الاتصال بها تكاد تختلف عاطفتهم بكيانهم من قبول تلك المدنية التي تقتضي الا تحدث لهذا السبيل كما يجب ترنيساً كما هي ارادة الحكومة والقوم مهما ابدوا من المكانة في مجاراة الاوضاع الافرنسية

خطرهم بقوة ورهبا نصف قرن ان يشعروا بكل ما تعرضه حكومتهم عليهم من الاوضاع والشرائع التي لاترى لها ولم حمعاة بدورا ا • والجزائريون لا يستطيعون على تلك الحال ان يدرسوا وحكمهم استعماري حتى ولا مبادئ لغتهم ما يحول دون امانيهم من العوائق على ما يقال • وكانما الجزائر اذا دام امر المسلمين فيها في تراجع وقد اصبحت فرنسوية في كل حال من احوالها ولذلك ترى بعض اهلها يهاجرون منذ سنين ويحملون بطبيعة الهجرة عن عرضهم وعقارهم • وبدل مكانهم اناس من الفرنسيس والطليان والاسبان وغيرهم يستعمرون الارض ويتملكون الدور والعقار ويطمعون في ازمة التجارة • وقسم من الاهلين يقلد الافرنج فيتمثل في طريقتهم ويحسن لغتهم وينسى لغته ويضعف وطنيته وجنسيته وعقيدته ايضا واولاده من بعده يدعون افرنجا صرفا ان لم يكن في الجيل الثاني ففي الثالث والقسم الآخر من السكان وهو المهم الآن وفيه كثير من ارباب الغنى والفكر يجمعون الا قليلا بين الاخذ بمذاهب المدنية الحديثة مع المحافظة على تقاليدهم واوضاعهم وهؤلاء خير طبقة يرجى منها النفع الآجل والعاجل وهناك قسم آخر يجرفهم سيل المدنية الحديثة فيتقبلونها رضوا ام لم يرضوا

واما اذا حسبنا من تعلموا الافرنسية اليوم من الجزائريين ولم يتعلموا لغتهم مائتي الف نسمة من اصل نحو خمسة ملايين بعد ان حكمت فرنسا هذا القطر زهاء سبعين سنة فنرى عددهم يربو الى ذلك اضعافا بعد هذه الحقبة من الزمن • اذ ان العادات المدنية والدينية تكون ضعيفة في الغالب لاول امرها ثم تقوى كالنار اصلها من شرارة ثم يمتد لهيبها وتشمل البعيد والقريب منها • ويخشى ان يكون حال الجزائر مع من يهاجرونها من ابنائها حال الجو في انكلترا مع سكانها فتقضي قاعدة الانتخاب الطبيعي وقانون الوراثة على الناجزين والخاملين ويبقى الشعب في الجملة من الاقوياء الاشداء العاملين الناهضين • لم نحاذر ان نقذف الجزائر بالخاملين الذين سدت في وجوههم مذاهب المعاش وان نستعيض عنهم بالعاملين من الغربيين او من الجزائريين انفسهم الآخذين بمذاهب الحياة اخذ الاوربيين •

من اجل هذا ساغ لنا ان نقول ان مستقبل الجزائر ان دام على هذا المنوال مظلم محزن ومثلها تونس وان كان الامل بنهوض هذا القطر اقرب من بعض الوجوه لان طرز حكومة الحماية يختلف بعض الشيء عن طرز حكومة المستعمرة لوجود حاكم من ابناء البلاد في الصورة ولان بعض المتنورين من اهلها لم يسعهم بعد طول الروية الا

الاشت الى الرقي باسباب الحضارة بعد زمن طويل ومهي بذلك التهالك على المناحي الاوربية وعدم اعتقال التعاليم القومية والمذهبية . وهذه الامارة على صدرها الامد الا ان يأتي يوم عليها تكبر فيه دوحتها وتتفرع فروعها في ارض فراجحة .

اما اقليم برقة او ولاية طرابلس الغرب فشأنها في اتساع رقعتها وكثرة سكانها شأن البلاد المتأخرة جداً وجمودها في الاخذ بمذاهب الحضارة جمود المغاربة كشبيهين وبلادهم حتى الحواضر منها بادية اكثرها مقصرة وقلما تجد ميلاً الى العلم الحقيقي فيهم والمتعلمون منهم يرون الاكتفاء بان يتعلموا مبادئ العلوم في مدارس الحكومة والتوظف في خدمتها اما سائر مذاهب المدنية فقد افتقروا [illegible] ان تزول عنهم انهم كالاطفال يلهو ويلعب او يعبث [illegible]

وشأن مصر ومصر معقد الآمال في مستقبل هذه الامة لان توسطها بين الاقطار العربية ومركزها الجغرافي الثاني الى اختلاطها بالامم الاخرى كما ان خصب تربتها وغناها وكثرة سكانها كثرة لم يتأت لبلاد كوادي النيل ان يحوي مثله عدداً ونظم مرافق العيش وانتظام حكومتها بعد الاحتلال مع اختلاف الدول التي حكمتها ومدنيتها القديمة وتعلمها الذي عم ارجاءها كل هذا نشرها وتسلسل الميل في ابنائها للاخذ بمذاهب الحضارة الغربية وتأسيس اوضاعها والمثابرة على تنشيط حضارتها وغلب كل هذا ما يرجى منه ان يكون حضارة عربية غربية تأخذ ان شاء الله من الحضارتين اطايبهما في [illegible] عرفت انها نشأت نشأة راقية تضاهي بها دول العلم والمدنية الحقيقية ولم تخل من شعائرها ولم تتناول كل ما دعت اليه من اسباب الحضارة الغربية فجاءت مدنية لا شرقية ولا غربية يكاد مناصروها يأخذ الافكار

وامسى في الزمان لمصر حظ عظيم في الارتقاء وفيها الذين قدموا الرأي من المربين [illegible] ومصلحيهم [illegible] وعندها ما يلزم لامة من ادوات الرقي في هذه الاقبال . واذا دامت لبعض ابنائها رغبة في تلقف العلوم الطبيعية والصناعية كما اولعوا بالعلوم الادبية والسياسية فتصبح بعد نحو عشرين سنة كأمة اوربية راقية وربما فاقت الآن دولاً [illegible] في الحضارة المدنية [illegible] وربما في فترة [illegible] كثيراً من الشعوب المنحطة في جنوبي اوربا

اما سورية فقد كانت لها مدنية خاصة لا يمنع ان نسميها كذلك [illegible] بالنظر لكون مجاورها [illegible] اخلاق [illegible] وعناصر سكانها [illegible] العلوم [illegible]

الدولة العلية عليها ولكنهم لم يوفوا الى الان فليرا افراد في بعض البلاد تحت عليهم مصالحهم الغربية كأهل حلب وما جاورها بتعلمهم او عرامهم للوظائف الملية والعسكرية والملكية كأهل دمشق وطرابلس وبيروت ابتلتها اما الذين تأثروا من ابنائها بالمدنية الغربية المبثة من المدارس الفرنسوية والاميركانية والانكليزية والروسية وغيرها فوفر عدداً وان لم تكن تلك المدارس اقدم زمناً وارسخ قدماً في كل الاقطار فهي في فلسطين اي في جنوبي سورية اوفر منها في شماليها وفي غربيها اكثر مما هي في شرقيها فتجد الناشئة الجديدة في الضواحي الغربية في القدس ويافا وحيفا وعكا والناصرة وصور وصيدا وبيروت ولبنان وطرابلس والاسكندرونة اكثر مما تجد منهم في نابلس وصفد ودمشق وحمص وحماة وحلب واللاذقية . وكلما كثر في بلد سواد المسلمين كان ابعد عن الاخذ بمدنية الغرب اكثر من غيره من المدن المختلفة اديانها وتباين اغراض العاملين فيها

وعندنا ان الحكومة تحسن صنعاً اذا نشطت في هذا القطر الامة العربية اكثر من اللغة التركية او على الاقل جعلتها مثلها ليكون لها من ابنائها اكفاء في صد تيار المدارس الاجنبية التي تعد الناس للهجرة اكثر من تحبيب بلادهم في اعينهم اما السعي في تتريك العرب في سورية وفي غيرها من الاقاليم العربية كاليمن والحجاز والعراق والجزيرة فسعي باطل ليس فيه خير للبلاد ولا للدولة لان تعليمهم بغير لسانهم يطول معه زمان نهوضهم الحقيقي والاتراك ابعد عن بلوغهم الى مستوى الفرنسيس والانكليز في الرقي ومعرفة المدخل والمخرج مثلاً حتى يفيضوا من علمهم على العناصر الاخرى ولذلك كان عمل الحكومة عقيماً في نشر التركية قسراً في البلاد العربية والدليل على ذلك ان الولايات التركية احط بكثير من بعض الولايات العربية كولايتي سورية وبيروت ارقى ولا شك من ادرنة وبورصة كما يؤكد ذلك من طاف هذه الولايات الاربع وخبرها قرناً كما خبروا مدنها اما درجة التهذيب والتعليم في سورية فارقى من بلاد الاكراد وارمينية وولايات آسيا الصغرى اي الاناضول والملك حار لما حنا ان ندعي ان السوريين كالطفل بدأ يحبو نحو المدنية الا انه لم يجد له خطة معينة حتى الآن وحالته مناط بمثل نوابه بل نواب العرب وكفاءتهم في مجلس النواب واذا احسنوا المطالبة نالت هذه البلاد حقوقها الادارية والملية والعمرانية والا فتبقى في حالة التذبذب

اما سائر الاقطار العربية فلا يسوغ لنا ان نقول انها اخذت تحبو مادامت الفتن

تنهك قواها وذلك مثل بعض انحاء العراق ونجد واليمن فان الامن لا يكد يقر في بعضه في قطر من اقطارها مدة طويلة ويشب نحو ثلاثين سنة الحكومة الا وتنتشر الفتن في بقعة من بقاع اليمن والحجاز حتى في سورية ونجد والعراق ولا يقابل مدنية تخلفها المدني خليج فارس فيما منها البصرة وبغداد شيء قليل لا تذكر الآثار العتيقة التي ينقلها الراحلون الى الشرق من اهل الغرب الى بعض مواني البحر من جهة الجزيرة العربية لبلادنا ان هذه لم تختلف حالتها من بضعة قرون الا ما كان من حال الامن فيها

وبعد فان حال هؤلاء الذين في اليمن والحجاز والبصرة وبغداد والجزيرة والشام وداخلية العرب يدل على ان الانتفاع من قليل منظر من كثير … ان اهل سورية ومصر لم يصيبوا سوى جزء من عشرين جزءاً من العرب القاطنين من سواحل بحر الظلمات الى شواطئ المحيط الهندي اكثر اثراً في المدنية من العرب اليوم وهم لا يقلون عن ستين مليوناً وما ذلك الا لبعد اقطارهم واختلاف الاغراض في حكوماتهم تحملها اما الى اليقظة العربية او الى الاهمال المدهش . افراطاً او تفريطاً وكلا طرفي ان زاد قتل .

اما سائر البلاد العربية كزنجبار والسودان واواسط افريقية فحالها تبع للاقدار وهي اقرب الى الاصطباغ بصبغة العالم منها لانها الى الان لا يستقر في الاصل مدنية راقية وذلك ثم بدأت تعود ولان اهويتهم الحارة تفعل في عقولهم فعلها كما تفعل الاقاليم الباردة في عقول الساكنين فيها فتنشطها وتبعث فيهم قوة الارادة والثبات وتطلب منهم مطالب كثيرة تضطرهم الى تنويع اساليب العمل

وبعد فليس كمصر بين البلاد في رقيها فهي ام الاقطار العربية وسوف … غيرها كما علمت في ارسال النعمة انوارها الى الاقطار ولا سيما الشام استقلال الاداري واصبحت ذات دستور يحل … بعض البلاد بحسب طالع الحكومات التي تتولاها

والمدنية كتيار قوي لا يقف في وجهه حدود الحكومات مهما اختلطت . ورابطة اللغة والدين اقوى الروابط لا تقوى القوانين عليها مهما طرأت والامة الآن تحيى وتوشك ان تمشي مشية الشباب القوي المعضلات … الادوات والصفات خصوصاً اذا تعاقبت وتعارفت اكثر مما تعاملت الآن وتعارف … الصلات الاقتصادية التجارية اذا قربت بين هذه البلاد اكثر مما هي الآن ووصل القاطر الراقي من العراق الى تونس وطاف المراكشي الى الشام دون … مصر وكثرت الغارات والمواصلات السلكية المنقطع واتحدت … ان تتحول وهو بعد قرن وقرنين — والقرآن والفرقان …

شيئاً في حياة الامم — ان هنالك امة عربية ذات كيان يذكر لا يقل عن كيان الطليان والالمان او اليابان والاميركان والمصريين الوطنيين بالقوات واحياء ما تدثر من القوات بضم شملها بعد الشتات ولا سبيل الى النهوض الا باحياء اللغة والآداب وتذكير الابناء بفضل الآباء والاخذ في هذه الامة الكثيرة العدد الوافرة البقاع والاصقاع ابناء المدنية العربية اقرب الى الاستقلال منها الى الفناء متى ارتضى بعض ابنائها بتعذر رؤيتها . سبحان من يحيي العظام وهي رميم

العفة

وتمدح العرب بها

العفة خلق يعصم صاحبه عن تناول ما لا يحل . فاذا عرض له ما هو محرم . او سنحت له شهوة محظورة حال هذا الخلق الكريم بينه وبين التلوث بها . وقد غلب استعمال كلمة « العفة » في تجنب قاذورة الزنا . ومن اكرم نفسه عن هذه القاذورة كان في منجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة . ويكفي الزاني خزياً في دنياه ان يكون محتقراً في ذويه معرضاً للعاهات والامراض الخبيثة . وان يصبح قدوة سيئة لاهله وولده في سلوك هذا الطريق المشؤوم . واني اعرف رجلاً ابتلي بهذه الرذيلة فكان له في كل يوم خليلة يختلف اليها . وينفق من رزق عياله عليها . وكان له زوجة واولاد فلم يكن امره ليخفى عليهم مهما بالغ في الكتمان . ولما بلغ اكبر اولاده سن الرشد مال الى هذا المنكر بعد ان عرف حب الفاحشة . فجعل يسافر من بلد الى بلد في تطلب البنات . وتعاطيهن . والاطفال يحيون .

وكيف يكون موقف الاب ازاء عمل ابنه هذا ؟ أتراه يقدر على كبح جماحه وارجاعه عن غيه . واقناعه ان ما هو فيه يؤدي الى قبح الاحدوثة . وضياع الشرف . وخسار الصحة . وعذاب الآخرة . فاذا صح له او بمثل هذا القول ماذا يكون جواب ابنه له يا ترى ؟ وفي مثل هذه القصة قال الشاعر في المثل السائر .

اذا كان رب البيت بالطبل ضارباً فلا تلم الصبيان فيه على الرقص

وقديماً ما تمدح العرب بالتحلي بالعفة . والابتعاد عن التلوث بقاذورة الفجور . بل تجنب كل ما يلحق بهم الريبة . ويدعو الى سوء الظنة . فكانوا يتمدحون بانهم لا يزنون امرأة جاره في غيبة زوجها اثماً وتكرماً .